

عناية الله في اختيار الزمان لظهور الدعوة

إن عناية الله - سبحانه وتعالى - التي تجلت في اختيار المكان الأول لظهور الدعوة ، تدفع بالباحث والمفكر إلى تلمس بعض مميزات الزمان ، الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية ، للوقوف على بيان فضل الله وكآل عنايته - جل شأنه - .

ففي أوائل القرن السابع ، وعلى حين فترة من الرسل ، ظهرت الدعوة الإسلامية هداية للناس أجمعين .. وأول ما يطالع الباحث في الإشارة إلى عناية الله - سبحانه وتعالى - : قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ ، قُرْنًا فَفَرْنَا ، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقُرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ »^(١) .

والمراد بالبعث - كما يقول العلماء - : تقلبه في أصلب الآباء من الأبعد إلى الأقرب فالأقرب^(٢) .

ولا يخفى على أحد : أن العلم يتعلق بسائر الحثيات التي تحتاجها الدعوة ، لكي تصل إلى هدفها ، ومن بين هذه الحثيات المختارة ، الزمن الذي ظهرت فيه الدعوة ، إذ لم يكن للعالم كله في تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ، ولا يقال فيها بالإجمال ، إلا أنها حالة فساد وانحلال . فلا حاجة للعلم ، ولا للسياسة ، ولا للأخلاق ، ولا للمرافق العامة ، لا توصف بتلك الصفة ، ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات .

(١) رواه البخاري ، في صحيحه مع فتح الباري ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ج : ٦ ، ص : ٥٦٦ .

ورواه أحمد ، في المسند ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٣ - ٤١٧ .

ورواه ابن سعد ، في الطبقات الكبرى ، ج : ١ ، ص : ٢٥ .

(٢) أبو الطيب البخاري ، عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري ج : ٥ ، ص : ٣٧ ، ط : مطابع قطر الوطنية ، سنة : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

وإذا نظرنا إلى الأحوال في جملتها ، وجدنا أنها هي الأحوال التي تنادي في كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية .

إن ظاهرة واحدة ، كانت تلف تلك الظواهر جميعاً في طياتها وهي فقدان الثقة بكل شيء ، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة ، إلا أن الثقة هي المطلوبة ، وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذي استشرى في كل مكان^(١) .

الحالة الدينية :

كانت حالة الناس قد وصلت من الفساد إلى النهاية ، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة ، من الكفر والجهل والفجور ، وغير الناس وبدلوا في الدين ، وحرفوا كثيراً مما أنزل الله على رسله من الكتب ، وعبدوا من دون الله آلهة شتى ، فالبوذيون كانوا يعبدون « بوذا » والهندوس كانوا يعبدون « البقر » ، والمجوس كانوا يعبدون النار . وكانت أُمّ تعبد الملائكة والجن ، وأُمّ تعبد الصور والتماثيل ، وأُمّ تعبد آثار الموتى ، وأرواحهم ، وكانت أُمّ تعبد مظاهر الطبيعة وتقديسها ، منهم : من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الأنهر ، ومنهم : من يعبد الحجارة^(٢) ، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾^(٣) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرَ بْنَ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾^(٤) وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيع ، واشتد بينهم الخلاف والجدل ، حتى غدا الدين الواحد خليطاً من المذاهب المتناقضة ، وسادت الخلافات والخرافات والأوهام ، وشاعت الإباحية والفوضى ، وارتكبت الفواحش باسم الدين^(٥)

(١) العقاد ، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، ج : ٧ ، ص : ٢٣٦ ، ط : دار الكتاب اللبناني ، سنة : ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

(٢) محمود الحسيني ، الدين المقارن ، ص : ١٤٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية رقم ١١٣ .

(٤) سورة التوبة ، آية رقم ٣٠ .

(٥) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ص : ١٠٦ ، ط : الأولى ،

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١).

وكان العرب أسوأ الناس حالا ، وأشدّهم إمعانا في الجهالة والضلالة فقد
أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وعبدوا العديد من الأصنام والأوثان
والأنصاب والتماثيل ، والأشجار ، وكتبان الرمال ، وعبدوا الملائكة والجن ،
واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والحجارة تتصرف في
أمورهم ، وفي مستقبل حياتهم ، وكان إيمانهم بالله إيمانا مشوشاً مضطرباً ،
يعتقدون أنه الإله الأكبر ، الذي يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ، ﴿وَلَيْنَسْأَلَنَّهُمْ
مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى
يُؤْفَكُونَ﴾^(٢).

ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى ، تخلى لها - سبحانه - عن بعض
التصرفات كشفاء المرضى ، ومنح الذرية ، وإنزال الغيث ، وتصريف الرياح
وإبعاد المجاعة ، وكشف الضر ، وجلب الخير . وأن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم
وبين الله ، يتوسلون بهم لديه في التجاوز عن ذنوبهم ، والعفو عنهم^(٣).

حالة الامبراطورية الرومانية :

إذا ذهب الباحث إلى البلاد المجاورة للبلاد العربية ، ليتعرف على أحوالها قبل
بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فلا يجد إلا اضطراباً سياسياً ، شاملاً ،
وفوضى دينية عامة ، وانحلالاً اجتماعياً فاشياً .

فالامبراطورية الرومانية كانت في القرن السابع الميلادي مفككة الأوصال ،
وكانت قد قسمت إلى امبراطوريتين : امبراطورية شرقية عاصمتها : القسطنطينية ،

القاهرة .

(١) سورة الروم ، آية رقم ٤١ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية رقم ٦١ .

(٣) أمين دويدار : صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ص : ١٠٧ .

وامبراطورية غربية ، عاصمتها : روسية . وكانت علامات الضعف وأمارات التفرق بادية في كل من الامبراطوريتين . وكان ذلك بسبب تنازع الأحزاب السياسية ، والفرق الدينية^(١) .

لقد حل الدمار بالامبراطورية الرومانية ، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكانت حضارتها قائمة على أكتاف الفقراء ، الذين كانوا يعملون لحساب الأغنياء ، فتاريخ هذه الدولة عبارة عن : إهمال وفساد ، واختلال وهرج ومرج ، وفوضى عمت جميع فروع الحكومة ، وقد تخاطفت أجزاءها الأمم الضعيفة ، وفكت بها ثورات القائمين بخدمة القصر ، وأخضعها محبو الظهور ، من رجال الجندية ، فظهرت بها الجرائم وأعمال النهب والسلب ، واختفت آثار الثقافة والكرامة الشخصية^(٢) .

لقد ساءت الأحوال الاجتماعية والسياسية في جميع أنحاء الممالك الخاضعة للمسيحية ، فقد حال النظام القائم في تلك الجهات ، دون حرية التفكير ، وحرية الحكم على الأعمال ، ولم يتورع أصحاب أتباع المسيح الخاضعون لسلطانه ، أن يشوهوا وجه العصر ، ويجعلوه عصر اضطهاد وإزهاق للأرواح ، وذبح كل ثائر أو خارج على الكنيسة الرسمية^(٣) .

يضاف إلى ذلك : أنه لم تبق نحلة - في هذه الامبراطورية - من النحل الكثيرة ، إلا حكمت على مناقضتها بالمروق ، وتعددت هذه النحل بين « الأريوسية » و« النسطورية » و« اليعقوبية » و« الملكانية » على تباعد الأقوال في الطبيعة الإلهية ، ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ويأتي النزاع بين الكنيستين الشرقية

(١) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٧٥ - ٧٦ .

عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي ، ج : ١ ، ص : ٩٧ - ٩٨ .

(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم -) ص :

٣٥ ، ط : وزارة الأوقاف المصرية ، سلسلة مكتبة الإمام رقم : ٢ ، ربيع الأول ، سنة

١٣٨٩هـ .

(٣) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٨٠ .

والغربية ، فيقضي على البقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركناً من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والالتهام^(١) .

حالة الامبراطورية الفارسية :

لم تكن الامبراطورية الفارسية قبل ظهور الإسلام بأوفر حظاً ولا أحسن حالاً من الامبراطورية الرومانية ، فقد كانت في حروب دائمة داخلية وخارجية ، وكانت تنافس الامبراطورية الرومانية في امتلاك آسيا ، وبسط النفوذ على سكانها ، وكثيراً ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم ، وأحياناً كانت تدور الدائرة على الفرس ، فيغلبهم الروم ، ويقتلون منهم ، ويأسرون ويخربون ديارهم ، ويضمون أملاكهم إلى أملاكهم ، وكذلك كان القيصر والأكاسرة متنازعين ، لا يكفون عن المقاتلة إلا قليلاً^(٢) .

وفي أوائل القرن السابع الميلادي : اشتبكت الامبراطوريتان الفارسية والرومانية في حروب ، كانت سبباً في ضعفهما معا ، وضعف فارس بوجه خاص^(٣) .

وفي الفترة التالية حدثت بفارس اضطرابات وفتن داخلية ، وتنافس على العرش عدد من الأكاسرة فكان الواحد منهم يُؤلَّى ثم يعزل بعد مدة قصيرة ، ومن المعروف أن ستة منهم تولوا العرش في أشهر قلائل وذلك بتدخل الجنود ، ورجال الحرس الامبراطوري ، الذين أطلقوا أيديهم وكانوا أصحاب التصرف المطلق في شئون الدولة ، فكانوا هم الذين يولون الأكاسرة ، ويعزلونهم كما يشاءون ، وبذلك سقطت هيبة الملك ، وقلت قيمة العرش ، وعمت الفوضى وانتشر الفساد وساءت حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية إلى درجة لا تطاق^(٤) .

ثم كانت الطامة الكبرى في عهد قباد أبي كسرى أنو شروان الذي حضر بعثة

(١) العقاد : المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، ج : ٧ ، ص : ٢٤١ .

(٢) عمر رضا كحالة ، العالم الإسلامي ، ج : ١ ، ص : ١٠١ .

المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص : ٣٦ .

(٣) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ، ص : ٣٦ .

(٤) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهره ، ص : ٨٨ .

النبي - صلى الله عليه وسلم - وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ففي عهد قباد ظهر (مزدك) داعية الإباحية والفوضى في الأموال والأعراض ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد ، أو ما يشابه التوحيد ، وقال كما قال (ماني) من قبله : إن العالم كله في قبضة إله النور ، وإله الظلام ، غير أنه زاد عليه : أن النور يفعل بالقصد والاختيار ، وأن النور عالم حساس ، والظلمة جاهلة عنها^(١) .

وبالرغم من نتائج المصلحين الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية ، والمراسم الهيكلية ، لم تزل عقيدتهم جميعا في الأرواح والشياطين حاثلا بينهم وبين التوحيد ، فإن موالاة الأرواح ومحاذاة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار ، عدا الإلهين الأقدمين : إله النور ، وإله الظلام^(٢) .

حالة الهند :

وأما في الهند ، فقد انتشر مذهب إباحة النساء بواسطة دعاة أقوياء وقد بلغ من الفحش : أن الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في اللقاء الأول ، لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة ، وكانت الأناشيد التي تنوء بالمنكرات والفضائح تلقى في الاحتفالات العامة ، فتمد مستمعها من الغواية بأسباب ، وتفتح لهم من الآثام كل باب^(٣) .

حالة بلاد العرب :

كانت حالة العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة ، وقبائل متباغضة وديانات متنافرة ، ونخل متحاسدة ، ولم تستطع اليهودية ، ولا النصرانية - بالرغم من

(١) العقاد ، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ، ج : ٧ ، ص : ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج : ٧ ، ص : ٢٣٨ .

(٣) محمد جاد المولى ، محمد المثل الكامل ، ص : ٦٤ ، ط : دار إحياء الكتاب العربي ، بمصر .

نشاط دعائهما - أن تجمع شملهم ، وتؤثر في نفوسهم ، وكانت أطراف الجزيرة العربية لقمة سائغة في أفواه المغيرين من الأجانب فقاموا بفتح الأكرسة في الحيرة ، وما حولها ، وظهر سلطان الروم في الشام وبلاد الغساسنة ، ودخل الأحباش ثم الفرس بلاد اليمن ، وكان هؤلاء الأجانب يحرضون أنصارهم من العرب على أعدائهم ، ومن ينصرهم من العرب فكان العربي يعادي أخاه العربي ويقاتله ، ويريق دمه ، لا لسبب سوى الانتصار للأجانب^(١) .

وقد ظلت بلاد اليمن محلا للنزاع ، ومسرحة للقتال قرونا متعددة وكانت الحروب تقع لأسباب دينية ، وغير دينية ، بين يهود خيبر ونصارى الأحباش ، ومجوس فارس^(٢) والأمة العربية كانت قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطائها وسبي نسائها ، وسلب أموالها ... تسوقها المطامع إلى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات^(٣) .

ويضاف إلى ما سبق : أن نظام حياة العرب ، كان قائماً على الظلم ، ظلم القوي للضعيف ، وتحكم القادر في العاجز ، وكان اعتمادهم على القوة وحدها ، فكانت الإغارة ، والسلب والنهب ، والأخذ بالثأر ، وحب الانتقام هي العلاقة التي تربط بين القبائل بعضها وبعض ، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف ، وحياتهم المعتادة ، وكانت مناقشة تافهة ، تكفي لإشعال حرب طاحنة ، وثورات يتوارثها الخلف عن السلف ، وكان القتال إذا اشتعلت ناره ، دام عدة سنين ، وقد يدوم عشرات السنين حتى غدا تاريخهم في الجاهلية سلسلة من الحروب الداخلية ، لا تكاد تنتهي ، ولم يكن لهم نظام جامع ، ولا حكومة موحدة ، بل كانوا قبائل متفرقة ، كل قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها ، مستقلة في نظامها

(١) حامد عبد القادر ، الإسلام وظهوره ، ص : ٧٧ .

(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص : ٣٧ .

(٣) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ١٨٠ ، ط : دار الهلال ، سنة : ١٢٨٢ هـ .

وتقاليدها وأحكامها^(١) .

ومن مظاهر الظلم في حياة العرب : أن المرأة عندهم ، لا تكاد تبرز حتى يعرف فيها طالع الشؤم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ بِهِ^(٢) .

ولعل الآيات الثلاثة التالية لإحدى البدويات ، تعبر تماما عن هذه الحالة ، عندما وضعت أنثى وغضب زوجها ، فامتنع من المجيء إلى بيته ، وأقام عند الجيران ، اشمئزا ، فقالت زوجته معذرة :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يقيم في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا والله ما ذلك في أيدينا
فنحن كالأرض للحارثينا نبت ما قد غرسوه فينا^(٣)

تستقبل شر استقبال ، تورث ولا ترث ، وتُملِك ولا تملك ، وكان البعض القليل من يملكونها ، يحجرون عليها التصرف فيما تملكه^(٤) . إلى غير ذلك من مظاهر الظلم ، والاستبداد ، والإذلال ، وكانت الأنثى على العموم مجلبة الحزن ، ومظنة العار والفقر^(٥) .

(١) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول ، ص : ١٢ .

(٢) سورة النحل ، الآيتان : ٥٨ - ٥٩ .

(٣) ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، ج : ٣ ، ص : ٤٨٢ ، ترجمه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهرسه : أحمد أمين ، أحمد الزين وإبراهيم الأبياري ، ط : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بالقاهرة سنة : ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م .

الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : ١ ، ص : ١٨٦ ، ط : مصر ، سنة : ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م .
د . نايف محمود معروف ، طرلث ونوادير من عيون التراث العربي ، الكتاب الأول ، ص : ١٧٣ - ١٧٤ ، ط : دار النفائس .

(٤) صبري عبد الرؤوف ، وأحمد السايح ، المرأة المسلمة وقضايا العصر ، ص : ٥ ، ط : الأولى ، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ، سنة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٥) أمين دويدار ، صور من حياة الرسول ، ص : ١١٢ .

تلك أحوال كانت في العرب والروم والفرس وغيرهم ، وهذه الأحوال التي عرضنا لها بإيجاز ، كانت مقدمات ، والمقدمات لا تأتي بنتائجها على وتيرة الداء الذي يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التي تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار وبغير حساب ، عالم إذا صح أن يقال عنه : إنه كان ينتظر شيئاً من وراء الغيب ، فإنما كان ينتظر عناية الله .

وإذا كنا نعرض لأحوال العرب والفرس والروم والهنود ، فإنه يجدر بالباحث أن يتعرف على أهم خصائص العصر الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية . والدراسة والبحث يقفان بنا إلى أن هذا العصر قد تميز بالخصائص الآتية :

أولاً : تعدد الصراع :

فقد ساد العالم في هذا الزمان صراع هام ، فلم تخل أمة أو منطقة منه ، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها . وأهم ما تميز به هذا العصر : هو تكرار الصراع تكراراً متلاحقاً ، فمنهم اليوم ينتصر غداً ، وهكذا دواليك ، من غير توقف وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي ، أو اقتصادي ، أو ديني ، تبعاً لاختلاف البيئات .

ففي البيئة العربية ، لم ينشأ صراع بسبب السلطة ، خصوصاً بعد أن وزع (قصي) الأعمال بين القبائل ، وجعلها فيهم وراثية وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان^(١) .

وإذا ذهبنا نبحث عن الصراع في البيئة الرومانية ، وجدنا أن الصراع ينحصر في الدين والسياسة ، وفي الفرس كان الصراع هو الدين ، وفي الحبشة كان السبب كذلك هو الدين ، وفي الهند كان هو نظام الطبقات إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع ، فإن هناك أسباباً كانت موجودة في سائر الأمم ، من أمثال : ظاهرة

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٧ .

لقد كانت دولتا العالم دولة الفرس في الشرق ، ودولة الرومان في الغرب ، في تنازع وتجادل مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الإحن حالكة^(٢) .

ومما يذكر أن الصراع الداخلي ساد سائر الأمم ، في الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات عدة ، أشهرها : ثورة الزرق والخضر في أثناء حكم (جستينيان) سنة : ١٥٣٢م ، التي طالبت بإقصاء وزير المالية ، وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى (جستينيان) على هذه الثورة بإهراق دماء كثيرة ، وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً^(٣) .

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة وحروب كثيرة ، من أشهرها في بلاد الغال « فرنسا » إذ ظهر الصراع على أشده ... وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس ، الذي استمر مدة طويلة وكذلك حرب البسوس ، وحرب حاطب بين الأوس والخزرج ، وقد استمرت إلى قبيل الإسلام^(٤) .

ومع الصراع الإقليمي وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم ، إذ اشتبكت الامبراطوريتان ، الفارسية والرومانية ، في حروب كانت سببا في ضعفهما^(٥) .

وإن الصراع بكافة أشكاله وصوره ، يؤدي حتماً إلى تغييرات اجتماعية ومن المتغيرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع ، ظهور قوي جديدة وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة .

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٧ .

(٢) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ٧٧ .

(٣) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص : ٨٨ .

(٥) حامد عبد القادر ، الإسلام و ظهوره ، ص : ٨٩ .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا ، لأن القوى الجديدة التي ظهرت في مكة ممثلة في الحنفاء والحكماء ، كانت ركيزة لانطلاق الدعوة .

ثانيا : تفتح الأذهان على خطورة هذه الصراعات :

إن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين ، ويبحثون عن قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع ، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص ، والهروب مما هي فيه . وذلك لأن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى يفيدان الدعوة في كثير ، فبالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها ، كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية ، وخلاص للضعفاء ، بدأت تأخذ وضعاً مطرداً .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ماسبقها بالشمول والعمق إذ انتشرت في العالم كله بشكل مستمر ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق^(١) .

ومن هنا : فإن الإنسان لا يعدو الحقيقة ، حين يذكر أن صراع هذا العصر ، كان من حكمة ظهور الدعوة فيه ، وجلت حكمة الله القدير - وحاشاه - أن يختار زماناً غير ملائم للدعوة ، أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود ، لأن الحقيقة الثابتة بكل إتقان ودقة ، والمتعلقة بكل شيء تنبع من قوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٢) .

ثالثا : النضج الفكري :

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس ، حتى كان البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٨٩ ، بتصرف .

(٢) سورة الرعد ، آية رقم ٨ .

فيها الإنسان أشده ، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده^(١) . ولعل المراد من النضج العقلي المذكور : هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلي المنظم ، الذي يستنتج من المحسوس ، ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضا ، القائم على التحليل والنقد ، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم ، ذلك أن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط ، إذ تهر بالعجائب ، وتسحر بالظواهر الخارقة^(٢) .

فالنضج العقلي قد ساد العالم كله ، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان ، متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها ففي العالم المسيحي الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية ، من أمثال : المناداة بألوهية الفطرة ، القائل : ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله - سبحانه وتعالى - ليكون رسولاً نبيا من قبل الإله الواحد ، وأحاطه بالحواريين التي لا توجد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه ، وما دفعهم إلى هذا الرأي إلا عقلهم الذي أرى التصديق بما هو وهم وخيال^(٣) .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم ، لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة « بوذا » على الهندوكية^(٤) في بعض تعاليمها ، ومحاولتها تبسيط العقائد والاهتمام بالأخلاق ، والعودة إلى الفطرة^(٥) .

وفي الجزيرة العربية - وبالرغم من تعمق القوم في تقديس الأصنام وتعظيم الحجر - فإن النضج الذي اتسم به العصر ، بدأ يظهر في العرب ، إذ اتجهوا

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص : ٢٢٥ .

(٢) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٩١ .

(٣) المصدر السابق ، ص : ٩١ .

(٤) الهندوكية ، هي : الهندوسية التي سبق الحديث عنها قبل قليل ، وهي : لفظ يطلقه الأوروبيون على ديانة الهنود .

(٥) د . محمد عبد المنعم الشرفاوي ، ملاح الهند وباكستان ، ص : ١٤٣ ، ط : الأولى ، دار المعارف ، بمصر ، سنة : ١٩٥٢ م .

بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام^(١) .
ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب ، ظاهرة الخفاء الذين أخذوا
يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس ، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق
والطريق إليه^(٢) .

رابعاً : انتظار رسول جديد :

كان للنضج الذي ساد العالم ، وكثرة الصراع وتنوعه قبيل الدعوة أن ظهرت
موجة من النقد للعقائد يوم ذلك ، والنقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال
الثقة في هذه العقائد ، التي توجه النقد إليها ومن هنا : صاحب عملية النقد شعور
بقرب ظهور نبي من العرب يصلح فساد هذا العالم ، ويضع الحقيقة الفاصلة في
مسألة العقيدة والسلوك وكل ما يسند الناس إلى الأصنام ويطلبونه منها ، وقد
وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد ، لدرجة أن اليهود في المدينة « يثرب »
كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين ، وكثيراً ماذكروا لجيرانهم من الأوس
والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - فور ظهوره ليتمكنوا
به من سيادة العالم ، وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم^(٣) .

والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن ، بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا
جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٤)
أي : كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم
من المشركين إذا قاتلوهم ، ويقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان تقتلكم
معه قتل عاد وإرم^(٥) وكانوا يقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص : ٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص : ٩٥ .

(٤) سورة البقرة ، آية رقم ٨٩ .

(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج : ١ ، ص : ١٧٨ .

الزمان ، الذي نجد نعته وصفته في التوراة ، ويقولون لأعدائهم من المشركين :
 قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم^(١) وكانوا
 يسألون العرب عن مولده ، ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا ، ويتفحصون
 عنه ، والآية نزلت في بني قريظة والنضير ، فقد كانوا يستفتحون على الأوس
 والخزرج ، برسول الله قبل البعث^(٢) .

ورأي اليهود له وزنه عند جيرانهم ، قبل البعثة ، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم
 ببعض أسرار الوحي وعلامته . فلقد روى أن مشركي مكة - لما بعث محمد -
 صلى الله عليه وسلم - فيهم : أرسلوا وفداً منهم يسأل اليهود عن رأيهم في هذا
 الرسول الذي أتاهم ودعاهم بدعوته^(٣) .

ولم تكن هذه المعرفة مخصصة بيهود المدينة وحدهم ، فلقد انتشر خبرها في
 أماكن كثيرة ، ووصلت إلى أقصى الشمال ، لدرجة أن سلمان الفارسي ، حينما
 أراد أن يترك المجوسية ، ويبحث عن الدين الحق ليعتقه ، سمع من يقول : إنه
 قد أظلم زمان نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم - عليه السلام - يخرج بأرض
 العرب مهاجرة إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، وبه علامات لا تخفى ، يأكل
 الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة وليس ذلك بكثير على علماء
 اليهود والنصارى ، لأنهم ﴿ ... يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
 وَالْإِنْجِيلِ ۚ ﴾^(٤) .

يقول ابن كثير في تفسيره : وهذه صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - في
 كتب الأنبياء ، بشروا أمهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة
 في كتبهم ، يعرفها علماءهم وأخبارهم^(٥) .

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ج : ١ ، ص : ٨١ .

(٢) الرازي ، التفسير الكبير ، ج : ٣ ، ص : ١٩٤ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٢٠ .

(٤) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٧ .

(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج : ٣ ، ص : ٤٨١ .

وكما وصل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال ، وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فقد روى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير ، أفضى سيف بن ذي يزن لعبد المطلب ، بما علمه من كتبه أن نبيا سوف يظهر في العرب ، يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة^(١) .

وهكذا ظهرت ملامح وطوالع النبوة في عقول الناس ، وفي كثير من الأماكن وهذه الملامح والطوالع في حد ذاتها تمهد للدعوة ، وتدعو إلى استماعها بشوق ، خصوصاً وقد حدثت أحداث كثيرة ، جعلت الناس ينتظرون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر للدعوة الإسلامية ، وظهورها في العالمين .



(١) الأرزقي ، أخبار مكة ، ج : ١ ، ص : ٩٤ - ٩٦ ، بتصرف .